الاستيطان بخطى سريعة . وبينما كان اليهود قبل سنتين يأتون من الجانب الاخر من المدينة للتبضع السريع او للسياحة او للصلاة امام حائط المبكى ثم يسرعون بالعودة قبل حلول الظلام ومجيء « المخربين » ، اصبحوا اليوم يتصرفون وكأنهم أصحاب المكان . اذ أن جماهير الاسرائيليين والسياح « تحتل » البلدة القديمة كل يوم ، من ساعات الصباح المبكرة حتى المساء ، وهم يلبسون اغرب مزيج من الالبسة ، فترى الى جانب « الشورتز » والتنانير القصيرة القفاطين الفلسطينية الشعبية المزركشة ، ومع بناطلين رعاة البقر ترى الكوفيات والعقل . وتراهم يملأون الدكاكين والمطاعم والمقاهي العربية ، وهم بالرغم من المظاهر « الهيبة » يتصرفون كأسياد البلاد واصحابها الجدد .

عندما وصلت القدس في اخر زيارة لي كان العمال قد انهوا تهديم عمارات عربية في منطقة الحرم الشريف . وتهديم المباني عمل « روتيني » في الاراضي المحتلة . وتقوم السلطات اولا باخلاء سكان المباني بهدوء وبحزم (واحيانا قليلة مع دفع بعض التعويض لهم) . وسواء احتجوا ام لم يحتجوا لا احد يبالي . وبينما يختفي السكان الاصليون وتنقطع صلتهم بالمكان (يلجأون الى اقارب لهم الى ان يعثروا على مساكن اخرى ، او ينزحون الى الضفة الشرقية من نهر الاردن للانضمام الى مئات الالاف من النازحين قبلهم) تقوم الات الهدم الحديثة ، بمدى ساعات واحيانا بمجرد دقائق فقط ، بازالة اثار وذكريات اجيال من حياة الشعب ، في سعي اخر لازالة الهوية الفلسطينية عن البلاد ، وبالتالي زيادة شعور الفلسطيني بالمرارة وبحقه في استعادة ارضه .

والى الشمال الغربي من القدس كانت افواج من الاسرائيليين تقوم بزيارة قرية النبي صموئيل ، او بالاحرى ما تبقى من هذه القرية : مقام النبي صموئيل (حيث مدفنه) وبقايا المنازل العربية التي هدمت تهديما كاملا تقريبا . وكان اهالي القرية قد أجلوا عنها بالقوة ودفع لكل عائلة مبلغ الف ليرة اسرائيلية فقط كتعويض عن الممتلكات كلها . وقد شاهدت احد ابناء القرية يعود الى موقع بيته ويقف أمامه بتأثر شديد . فسألني احد السياح الاسرائيليين بغضب « مم يشكو هذا الرجل ؟ لقد عوضنا عليه تعويضا حسنا وبامكانه ان يبني بيتا اخر في مكان اخر ! » فقلت « ولكن الارض ارضه والبيت كان بيته » . فأجابني بصراحة « كلا . الارض ارضنا نحن ونحن في حاجة اليها » . واضاف « يهود كثيرون يأتون الى اسرائيل من اوربه الشرقية ، ويجب ان نوفر اماكن الاستيطان لهم . الا يحصل في كل بلاد العالم ان تنقل الحكومة سكانا قليلين لتتيح لالاف الناس بناء مشاريع نافعة ؟ ثم أن موقع هذه البلدة مهم لنا استراتيجيا . فهو يسيطر على المنطقة بأكملها وعلى الطريق الى القدس. اننا لم ننس بعد حرب ١٩٤٨ » .

وينمو مشروع القدس الكبرى كعاصمة لاسرائيل نموا كبيرا وسريعا بين القدس ورام الله وبين القدس وبيت لحم ، على مئات الدونمات من الاراضي العربية المصادرة . ويعبر عن هذا النمو بمئات المباني (للسكن وللاعمال وللادارة وللحراسة وللتجارة وللتأجير) التي تطبع الختم اليهودي على المدينة . بل أن احد المباني في شمال المدينة يحمل يافطة كتب عليها « مفهوم جديد للحياة العصرية ».

وقد علق احد الشبان الفلسطينيين « لا يسمح لعربي بالاقامة هنا في هذه المنطقة العربية من القدس . ولا يسمح لعربي بالاقامة في غرب القدس ، حيث السكان يهود . لقد كانت عائلتي تعيش في القدس الغربية مدة عشرين سنة قبل حرب ١٩٤٨ . ولا يزال بيتنا قائما هناك . ولكننا لا نستطيع الذهاب الى هناك . لقد ضمت اسرائيل القدس . وضمتنا نحن . واصبحنا مواطنين اسرائيليين . الا انه يجب علينا ان نقيم في اماكن خاصة محدودة » .

قال لي مهندس اسرائيلي ، بزهو « اننا نتوقع سكنى مليون يهودي في القدس الكبرى » . الا انه لم يكن معجبا بنمط العمارة الحديث . « انه قبيح ، بلا جذور ولا علاقة له بالمحيط . لكننا لا نستطيع ان نفعل شيئا » . ثم رجعنا الى القهوة الصغيرة قرب باب الخليل . وجاء صبي راكضا وهمس كلمات بأذن رجل يجلس الى الطاولة المجاورة فقام الرجل وهمس باذن صاحب المقهى وغادر مسرعا ، وقال لي صاحب المقهى « لقد القوا القبض على اثني عشر ولدا في البلدة القديمة. واخو الرجل واحد منهم ».

كل شيء هادىء في الضفة الغربية . والاجراءات الامنية قليلة اذا ما قيست بما كانت عيه ١٩٦٨